شرح كتاب الفتن من صحيح البخاري: الدرس الأول

لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن أحمد البداح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه والشكر له على نعمائه، وصلى الله وسلم على خير خلقه وأنبيائه، فهذا كتاب الفتن من صحيح البخاري رحمه الله. قال المؤلف غفر الله له ولشيخنا والحاضرين:

" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَاب الْفِتَنِ"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فهذا هو الدرس الأول من شرح كِتَاب الْفِتَنِ من صحيح البخاري، وهذه المقدمة في تعريف الفتن في اللغة، والمراد بالفتن هنا، وأنواع الفتن، والكتب المؤلَّفة في الفتن، والغاية العظيمة التي لها ارتباط بالفتن فتُظهِر أهمية دراسة هذا الموضوع.

الفتنة في اللغة تعود إلى أصلٍ واحدٍ وهو الاختبار ذكر هذا الأزهري في "تهذيب اللغة" وابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": أنَّ الفتنة تعود إلى أصلٍ واحدٍ هو الاختبار، وأُطلقت في القرآن إطلاقات تعود إلى هذا الأصل كما في قوله عز وجل:﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...﴾ [البروج:١٠]، وكما في قوله عز وجل:﴿... وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا...﴾ [طه:٤٠] ، وكما في قوله عز وجل:﴿... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ...﴾ [النور:٦٣] ، وكما في قوله سبحانه:﴿... وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ...﴾ [البقرة:١٩١] ، وكما في قوله سبحانه:﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ [التغابن:١٥]، وهذه الإطلاقات وغيرها مما جاء في القرآن تعود إلى هذا الأصل.

ما المراد بالفتن؟ المراد بالفتن هنا: تَغيُّر الزمان، وتَقلُّب الأحوال مما يكون في آخر الزمان.

والفتن على نوعين: فتن خاصة وفتن عامة، وإلى هذا أشار حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل الصحابة:" أيُّكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟" فقال جابر رضي الله عنه :" فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره". فقال حذيفة رضي الله عنه:" فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تُكَفِّرُها الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"

فقال عمر رضي الله عنه:" ليس ذاك أريد ولكن الفتنة التي تموج كموج البحر..." الحديث فهنا ذُكرت الفتنة الخاصة فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، والفتنة العامة فتنةٌ تموج كموج البحر.

اهتم أهل العلم بذكر أحاديث الفتن، وأئمة السُّنَّة بَوَّبوا، وجعلوا كُتُبًا في مصنفاتهم في الفتن البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه كل هؤلاء الأئمة رحمهم الله جعلوا في مصنفاتهم كتبًا في الفتن، وصَنَّف أهل العلم كتبًا مستقلة في الفتن، فصنف نُعَيم بن حماد كتاب "الفتن" على ما فيه من أحاديث واهية وضعيفة، وصنف المقرئ الداني كتابًا في "الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها"، وكّتّبّ ابن كثير كتابًا عظيمًا وفيه التحرير كتاب اسمه "النهاية في الفتن وأشراط الساعة"، وهو في آخر البداية والنهاية، وفي الزمن المتأخر كتب جملة من أهل العلم كتبًا في الفتن من أشهرها: كتاب الشيخ حمود التويجري رحمه الله اسمه "إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن وأشراط الساعة"، وكتب أيضًا فهد الزيدان كتابًا اسمه "كشف الستار عن الفتن وأشراط الساعة"، وفيه كتاب لطيف للدكتور يوسف الوابل اسمه "أشراط الساعة". الكتب على كل حال في أشراط الساعة كثيرة.

ذكرتُ لك في تعريف الفتن أنها تغيُّر الزمان وتغيُّر الزمان بدأ بعد موت النبي ﷺ، وموته عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة جاء عند البخاري ((اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَة-وذكر منها- مَوْتِي)) .ولهذا ذكر الصحابة رضي الله عنهم تغير الأحوال بعد موته عليه الصلاة والسلام، وتقلب الزمان.

جاء عند أحمد والترمذي وابن ماجه أن أنسًا رضي الله عنه قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ،فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي إلا وأنكرنا قلوبنا"، وجاء أن عائشة رضي الله عنها كانت بعد موت النبي ﷺ تتمثل:

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهِمْ.....وبقيتُ في خَلَفٍ كجلدِ الأجرَبِ

وروى البخاري أن أبا الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه دَخَلَ مُغْضَبًا عَلَى أ م الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها فقالت : مَا يُغْضِبُكَ ؟ قَالَ : مَا أَعْرِفُ مما كان على عهد النبي ﷺ إِلَّا أَنَّ الناس يُصَلُّونَ جَمِيعًا. ابن حجر يعلّق على هذا الأثر فيقول: "فإذا كان هذا قول أبي الدرداء في خلافة أو في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه وفيها من الفضائل ما فيها، فيا ليت شعري فكيف بما بعده من الطبقات إلى زماننا يعني زمانه، وروى البخاري أيضًا أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:" مَا أَعْرِفُ شيئًا مما كان على عهد النبي ﷺ. فقيل له: "الصلاة." فقال:" لقد ضيعتم ما ضيعتم فيها"، وذلك أنه إذا مات الصالحون وأتمهم، وأكملهم، وأفضلهم الأنبياء والرسل حصل النقص في الأرض بانقطاع الوحي؛ ولهذا جاء في مسلم أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما زارا أم أيمن رضي الله عنها بعد موت النبي ﷺ فبكت رضي الله عنها فقالا: "ما يبكيكِ وما عند الله خيرٌ لرسول الله؟ فقالت:" ما يبكيني ألَّا يكون ما عند الله خيرٌ لرسول الله. ولكن يبكيني أن انقطع الوحي من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان.؛ ولهذا يحصل النقص في الأرض بذهاب الصالحين وأتمهم، وأكملهم، وأفضلهم نبينا ﷺ . الله عز وجل قال في القرآن :﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ

أَطْرَافِهَا..﴾ [الرعد:٤١] قال مجاهد بن جبر:" موت العلماء"، وقال الحسن البصري:" إن موت العالم ثُلمةٌ في الإسلام لا يَسُدُّها شيءٌ ما اختلف الليل والنهار"، وذهاب الصالحين من أشراط الساعة، وقد جاء في البخاري: ((يذهب الصالحون الأول فالأول حتى يبقى حُثالة كحُثالة الشعير أو التمر لا يأبَهُ الله بهم))؛ ولهذا السماء والأرض تبكي على المؤمن، فإن الله عز وجل ذكر عن آل فرعون:﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ...﴾ [الدخان:٢٩] لكنَّ السماء والأرض تبكي على المؤمن كما جاء عن مجاهد بن جبر قال: "حُدِّثت أن الأرض تبكي على المؤمن إذا مات أربعين صباحًا"، وكذا أيضًا جاء عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير: "أنَّ الأرض أو المساجد التي كان يصلي بها المؤمن أنه تبكيه والموضع من السماء الذي يُرفَع منه عمله يبكيه". مما يتعلق بالفتن أنَّ أعظم غاية للمؤمن، وأكبر مطلوب للمسلم أن يوافي ربه على الإيمان، و يلاقيه على الإسلام، والفتن تحول بين العبد وبين ذلك؛ ولهذا المؤمن يطلب السلامة من الفتن. لماذا يطلبها؟ لأن الفتن إذا تلَبَّس بها الإنسان فإنها في الغالب تحول بينه وبين موافاة ربه على الإيمان، وملاقاته على الإسلام، و موافاة الله عز وجل على الإيمان، ولقاؤه على الإسلام هذا أعظم مطلب للمؤمن، بل إنَّ الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بذلك فقال:﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] يعني الموت، وقال للمؤمنين:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وهذا دعاء الصالحين من عباد الله:﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾[آل عمران:١٩٣]، وموافاة الله عز وجل على الإسلام والإيمان وصية الأنبياء والمرسلين:﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢]، ولما أُبتلي وامتُحن واختُبِر أتباع وأصحاب موسى عليه السلام دعَوا ربهم :﴿...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦] يوسف عليه السلام تم له ملكه، وجمع الله له شمله لكن تاقت نفسه إلى هذه الغاية العظيمة، والمطلب الكبير:﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]؛ ولهذا يحرص المؤمن على هذه الغاية، ويتجنب الأسباب التي تحول بينه وبينها ومن أعظم الأسباب التي تحول بين المؤمن وبين هذه الغاية العظيمة هي الوقوع في الفتن، وهذا يبين أهمية هذه الدراسة.

هذه الدراسة دراسة الفتن، والقراءة فيها، والأخذ بأسباب السلامة منها هذه يدفع إليها ويُذكِّر المسلم بأهميتها إذا تذَكَّر الغاية التي يسعى إليها، وهي أن يلقى الله عز وجل على الإيمان، والتوحيد، وإذا ذكرنا تغير الزمان وتقلب الأحوال ففائدة هذا تسلية المؤمنين، وتثبيت الصالحين، فإذا كان أصحاب النبي ﷺ على فضلهم ومكانتهم لهم المقام الأكرم، والمرتبة العظيمة ومع ذلك يَشْكُون تغير زمانهم وتقلب أحوالهم في الزمن الفاضل فكيف بما بعده؟ وإذا عرفنا تقلب الزمان وتغير الأحوال فإنَّ المؤمن يتعامل مع هذا الواقع وِفق ما جاء في الكتاب وفي السنة ولا

يحمله تغير الزمان وتقلب الأحوال على أن يجتهد بعيدًا عن الكتاب والسنة في أن يتخذ مواقف أو قرارات أو يتكلم بمقالات قد يكون فيه هَلَكُه وعَطَبُه في الدنيا وفي الآخرة.

أحسن الله إليكم شيخنا

كِتَاب الْفِتَنِ بَاب مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً..﴾[الأنفال:٢٥]، وَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَذِّرُ مِنْ الْفِتَنِ.

أورد البخاري-رحمه الله - هذه الآية:﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال:٢٥] هذه الآية أكثر المفسرين، والقول المشهور على أن المراد بها: اجتنبوا فتنةً لا يقتصر العذاب فيها على الظَّلَمَة والعُصاة، وإنما يشمل الناس جميعًا ممن رضي بالفتنة أو شارك فيها، ويدل على هذا التفسير الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى كحديث زينب رضي الله عنها: "أنهلِك وفينا الصالحون؟" قال: ((نعم إذا كثُر الخبث)) ، وجاء عند الإمام أحمد أنه قال: ((إنَّ الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم الله بعقابٍ من عنده))، وما في معنى هذه الأحاديث، فهذه الأحاديث تدل على أنه إذا ظهرت المنكرات، ورضي الناس بها، ولم ينكروها فإنَّ عذاب الله يعمهم جميعًا، وقيل: "إن المراد في هذه الآية أن العذاب يخص أهل المعصية"، لكن القول الأول هو الأشهر وهو الذي تدل عليه الأحاديث، فمن هذه الآية نعرف أن من أسباب دفع الفتن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُقَيَّدٌ بالاستطاعة كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه في صحيح مسلم: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)) فالمؤمن إذا لم يقدر لم يستطع ، والاستطاعة هنا المراد بها أن يكون من أهل الولاية؛ أهل الولاية مثل الأب في بيته، ومثل الزوج على زوجته، ومثل المحتسب في ولايته، ومثل الأمير في ولايته هؤلاء هم أهل الاستطاعة، وأيضًا مما يدخل في الاستطاعة أن المؤمن إذا خاف الأذى فإنه يسقط في حقه التغيير باليد أو التغيير باللسان، فإذا لم يكن من أهل الولاية، وخاف إذا غيَّر بلسانه أن يصيبه أذىً فإنه يُعذَر في ذلك، ومن الفتن التي يُبتلى بها الإنسان أن ينبري لتغيير المنكر وهو ليس من أهل الولاية، فيصيبه الأذى، ويُفتَن في دينه، والمؤمن يطلب العافية، وينشُد السلامة ما دام أن فيه، أو أن له رخصة شرعية، والرخصة أنه لا يستطيع دفع المنكر بيده أو لسانه إذا لم يكن من أهل الولاية، أو كان يخشى الأذى؛ ولهذا من فقه السلف رحمهم الله أن الخلَّال رحمه الله في رسالةٍ له "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" أورد حديثًا عند الإمام أحمد أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((ليس للمؤمن أن يُذِل نفسه)). قالوا: "وكيف يُذِل نفسه؟" قال: ((يُحمِّلها من البلاء ما لا يُطيق))فمن الفتنة أنَّ بعض الناس قد ينبري لتغيير المنكر وهو ليس من أهل الولاية، أو يترتب على إنكاره أذىً

يلحقه في نفسه، ثم يُفتن بعد ذلك، وهذا في مرتبة الإنكار باليد وباللسان. أما الإنكار بالقلب فلا رخصة فيه، فيجب على كل مسلم أن ينكر المنكر بقلبه، ونقف عند هذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.